الفتوة الاســـلامية

الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

عرفوا الفتوة فى اللغة بأنها : الكرم والسخاء ، والشجاعة والمروءة ، فإذا عرفنا أن هذه الفضائل الخلقية كانت جماع الشرف والمجد فى البيئة العربية أدركنا أن « الفتوة » كانت دلالة النبل والسمو فى تلك البيئة . ولقد قالوا « لا فتى إلا علىّ » ، يعنون أنه كرم الله وجهه كان غاية فى إدراك هذه الفضائل والشمائل ، على أننا نجد معنى « الفتوة » فيما بعد الصدر الأول الإسلام قد اتسع فى دلالته فأصبح يضم إلى ما سلف من الفضائل الخلقية فضيلة الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، وبهذا انتقلت « الفتوة » من طور إلى طور ، فالفتى فى الطور الأول كان فرداً غايته أن يفعل ما يكسبه المجد فى قومه ، وأن يحافظ على شرفه الذى هو شرف قبيلته ، أما فى الطور الثانى فإنه أصبح فرداً يعيش لغيره ويؤثره على نفسه ، أو كما نقول فى اصطلاح العصر : فرداً يعيش للجماعة ، وقد حدد الشاعر العربى هذا المعنى إذ يقول :

فإن فتى الفتيان من راح واغتدى لضر عدو أو لنفع صديق

ويظهر أن « الفتوة » قد ابتدأت تتميز فى البيئة الإسلامية كظاهرة من ظواهر المجاهدة ، وكمرحلة من مراحل التصوف ، على عهد الحسن البصرى ، ومما يؤثر عن الحسن قوله : « كان الفتى إذا نسك لم نعرفه بمنطقه وإنما نعرفه بعمله » ، وبهذا المعنى تكلم فى « الفتوة » جعفر الصادق ، ثم الفضيل ، ثم الإمام أحمد ، ثم سهل ، فالجنيد ، وأضرابهم من الصوفية . قال على بن أبى بكر الأهوازى « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلا واحداً » ، وقال القشيرى : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً فى أمر غيره » ، وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » إن الفتوة هى كسر إبراهيم للصنم ، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .. وهكذا نجد « الفتوة قد اتخذت فى البيئة الصوفية مظهراً يلائم تلك البيئة فى اتجاهاتها وفى أهدافها ..

والكلام على ما كان من نظام « الفتوة » فى محيط الصوفية يحتاج إلى حيّز كبير ، وقد يقتضى ذلك كتاباً برمته ، فحسبنا تلك الإشارة العابرة ، لأننا نقصد فى هذا المقال إلى الكلام عن « الفتوة » إذ تمثلت فى المجتمع الإسلامى نظاماً له أهدافه السياسية والاجتماعية والخلقية ، وقد كان ذلك على عهد الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، فهو الذى فرغ لهذا الأمر وتولى تدبيره بنفسه ، فأهدر ما كان من أوضاع الفتوة السابقة ووضع لها نظاماً عاماً ينتظم الأكابر والأصاغر والخاصة والعامة ، وجعل نفسه القبلة فى هذا والمرجع ، وأرسل إلى الملوك والأمراء على أن يأخذوا بهذا النظام ، قال « أبو الفداء » فى حوادث سنة سبع وستمائة : « وفى تلك السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة [1] ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق ويجعلوه قدوتهم . . . » ، ويقول أبو المحاسن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : « وفى أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة ببغداد ورمى البندق ولعب الحمام المناسيب ، وافتتن الناس فى ذلك ، ودخل فيه الأجلاء ثم الملوك ، فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوة ، ولبسها أيضاً الملك شهاب الدين صاحب غزنه والهند من الخليفة الناصر لدين الله ، ولبسها جماعة أخر من الملوك . . »

ولعل ابن الساعى هو المؤرخ الوحيد الذى فصل ما كان من عمل الناصر فى ذلك ، ولقد حفظ لنا هذا المؤرخ العظيم صورة من المعهد الذى أذاعه هذا الخليفة على رؤساء الأحزاب بتعاليم الفتوة وما حدد لها من التقاليد والأوضاع حتى لا يتعدوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الناس [2] ، وقد كان من خير ذلك العهد أن الفاخر العلوى كان رفيقاً للوزير ناصر ابن مهدى ، وكان له رفقاء ، فاختصم أحد رفقائه مع رفيق امز الدين نجاح الشرابى ، ووقعت بذلك فتنة عظيمة بين الفريقين ، حتى تجالدوا بالسيوف ، فانتهى هذا إلى الخليفة الناصر فأنكره ، وتقدم إلى الوزير بجمع رؤوس الأحزاب ، وأن يكتب فى ذلك كتاب يؤمرون فيه بالمعروف والألفة ، وينهون عن التضاغن

(١) هو كما نقول فى هذه الأيام يشربون نخب فلان .

(٢) لم يصلنا من تاريخ ابن الساعى إلا قطعة مخطوطة جمعها المغفور له أحمد تيمور باشا وهى تبدأ من حوادث سنة ٥٩٥ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٦٠٦ هـ وعليها اعتمدنا فى نقل تلك النصوص .

والتباغض ، ويقرأ بمحضر منهم ، ويشهد عليهم بما يتضمنه ، فمن خالفه أخذت سراويله ، وأبطلت فتوته ، وعوقب بما يستحق، ويعتبر هذا العهد وثيقة نادرة تكشف لنا عن الحدود التي رسمها الخليفة الناصر لنظام « الفتوة » الذى أقامه ، وتبين لنا ما وضع لهذا النظام من هدف وغاية ، ففى ديباجة هذا العهد يشير إلى شئ من تاريخ الفتوة ومرجعها وأصلها فيقول : « من المعلوم الذى لا يتمارى فى صحته ، ولا يرتاب فى وضوح براهينه وأدلته ، أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومتبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، وإليه دون غيره ينسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته الشريفة النبوية نسج الرفقاء والإخوان ، وأنه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ، ويستوفيها من أصناف الجناة على تباين جناياتها ، ومللها ومذاهبها ، غير مقصر عما أمر به الشرع المطهر وقدره ، ولا مراقب فيما رتبه من الحدود وقرره ، امتثالا لأمر الله تعالى فى إقامة حدوده ، وحفظاً لمناظم الشرع وتقويم عموده ، فإنه عليه السلام فعل ذلك برأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أخيار الصحابة ومجمع ، فلم يسمع أن أحداً من الأمة لامه ، ولا طعن عليه طاعن فى حد أقامه ، وحقيق بمن أورثه الله مقامه ، وناط به شرائع الدين وأحكامه ، وانتمى إليه عليه السلام فى فتوته ، واقتفى شريف شيمته ، وكريم سجيته ، أن يقتدى به عليه السلام فى أفعاله ، ويحتذى فيما استرعاه الله تعالى واضح مثاله ، غير ملوم فيما يأتيه من ذلك ، ولا معارض فتوة وشرعاً فيما يورده ويصدره»

ثم يشير العهد إلى المراسم المفروضة « على كل من تشرف بالفتوة برفاقة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة المجددة الطاهرة الزكية الأمامية الناصرة لدين الله تعالى » ، وكل هذه المراسم دعوة إلى الألفة والمحبة ، وإلى أن يكون الرفاق فى عون بعضهم بعضا ، فمن كان له رفيق قتل نفساً زكية بغير إثم بادر بالخروج من رفقته ، لأنه بهذا الإثم خرج عن دائرة الفتوة ، ومن حمى قاتلا وأخفاه وساعده على أمره تنزل عنه كبيره وتبرأ منه ، ومن حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريد الشرع فقد ضل وهوى ، وإذا قتل الفتى فتىً من حزبه سقطت فتوته ، ووجب أن يؤخذ منه القصاص عملا بقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » ، فإذا قتل غيرُ فتى رفيقاً من الرفاق أو عوناً من الأعوان ، أو منتسباً إلى ديوان فى بلد الخليفة المفترض الطاعة على كافة الأنام ، فقد عيب هذا القاتل بالقتل وواجب القصاص منه على كل فتى راجح . .

وفى الختام يشير العهد إلى ما يجب على الرفقة من العمل بموجبه والجرى على مقتضى المأمور به والوقوف عند المحدود فيه ، قال ابن الساعى « وقد سلم إلى كل واحد من رؤساء الأحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة ثلاثين من العدول ، ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما صورته : قابل العبد بما تضمنه هذا المرسوم المطاع ، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والامتثال والاتباع ؛ وهو الذى يجب العمل به فتوة وشرعاً ، وهذا المعروف من سيرة الفتيان نقلا وسماعاً ، وقد ألزمت نفسى إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الأشرف ، فمتى جرى ما ينافى المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً لى والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحرب ثبت الله دولته وأعلى كلمته ... » .

لم تكشف لنا النصوص الواردة عن حقيقة القصد الذى كان يهدف إليه الناصر من إنشاء هذا النظام للفتوة ، أو على الأصح من إنشاء هذه الجمعية التى كانت فى نظامها أشبه ما تكون بالجمعيات السياسية والحربية ، ولهذا يرجح الباحثون أن الناصر كان يقصد بذلك إلى إحياء الروح الحربية فى النفوس ، وإقامة قوة يمكن أن يقف بها فى وجه أولئك الأعاجم الذين أخذوا يتخطفون الامبراطورية العربية من كل جانب ، ويعملون على إزالة معالم الخلافة الإسلامية .

غير أنا نرى جميع المؤرخين القدماء الذين كتبوا فى سيرة الناصر وأحواله قد عابوه بالانصراف إلى هذا الأمر ، حتى يقول أبو الفداء إنه « كان قبيح السيرة منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ولبس سراويلات الفتوة » ، وإنهم ليذكرون عنه فى ذلك حكايات تصوره مثلا أعلى فى اللهو وسقوط الهمة والانصراف عن مهمات الأمور . والمؤرخون القدماء لا شك معذورون فى هذا التقدير ، لأنهم تعودوا أن يروا الخليفة مثالا للارستقراطية المتعالية ، فهو شخص لا عمل له إلا أن يجلس

فى صدر الديوان يأمر وينهى ، ويمنع ويمنح ، فكان من الغريب فى تقديرهم أن ينصرف الناصر إلى هذا التدبير ، وأن يبذل له كل هذه العناية ، وأن يعنى بتعميم ذلك النظام الحربى الرياضى بين الطبقات ! !

على أى حال نستطيع أن نقول إن الناصر قد وضع نظاماً للفتوة الإسلامية كان فى الإمكان أن يجدد شباب الدولة العربية وأن ينهض بها من عوامل الانحلال التى تسربت إلى جسمها ، ولكن يظهر أن أحداث الزمن فى تلك الأيام كانت أعنف وأغلب . على أن هذا النظام قد امتدت أصوله فى البيئات الإسلامية ، وعمت آثاره آماداً من السنين ، فأننا نجد الرحالة ابن بطوطة بعد عهد الناصر بقرنين ، أى فى القرن الثامن الهجرى يتحدث عن جميات الفتوة وانتشارها فى بلاد الأناضول ، ويثنى عليها ثناء مستطاباً ، وكانوا يسمون بالأخية الفتيان [1] ، قال ابن بطوطة « وهم بجميع البلاد التركمانية والرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعة وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة أيضاً ، ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافة لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخى ، ولم أر فى الدنيا أجل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظمهم إكراماً له وشفقة عليه .. »

(١) واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم الى نفسه .

ومن ثم نرى أن الفتوة الإسلامية قد تطورت إلى نظام اجتماعى إنسانى أشبه ما يكون بنظام الماسونية من جهة ، وبنظام التعاون الاجتماعى من جهة أخرى ، كما نرى أن الفتوة الإسلامية قد تغلغلت فى البلاد الأسلامية وانتشرت بين الطبقات ، ولو كان هناك القائد المنظم الذى يعمل لاستغلال تلك الجماعات على وضع محدد الهدف والغاية لأجدت كثيراً من الخير على العالم الإسلامى ، ولكنها انتهت فى آخر الأمر إلى مايشبه نظام الزوايا الذى وضعه الصوفية ، ويظهر أنها تلاشت فى هذ النظام على مر السنين .

على أننا نرى فى العصور المتأخرة نظاماً شاع بين الطبقات ، وهو الذى عرف فى البلاد العربية « بمشيخة فتوة » وهو نظام كان يقوم على قوة الساعد والمضل ومزاولة بعض الأعمال الرياضية والفروسية .

وبعد ، فهذه صفحة من تاريخ الفتوة الإسلامية ، عرضناها على القراء مجملة ، لأن المقام لايحتمل الشرح والتفصيل ، ولعلنا نعود فى فرصة أخرى إلى تجلية بعض النواحى فى هذا الموضوع الذى عنى به المستشرقون أكثر مما عنى به أبناء العروبة .

محمد فهمى عبد اللطيف

أنا غريب

بقلم الأستاذ

خبيب الزحلاوى

مجموعة من روائع القصص

تطلب من مكتب التوزيع ٥٣ شارع ابراهيم باشا